# فصول من حياة الحكم أمير الأندلس

## ( ٢ )

### وقعة الربض — الحكم والفقيه طالوت

كان لمذبحة وقعة الحفرة تأثير بليغ فى نفوس مولدى قرطبة وفقهائها ، فظلوا معتصمين بالهدوء سبع سنوات عاودتهم فى نهايتها نزعة التمرد ، وبدأ التذمر يساور الفقهاء ويجيش بنفوس المولدين وكان كل منهما يشحذ ضراوة الآخر ، ويوغر صدره ويثير نقمته ، ولم يخف ذلك على الأمير الحكم فحاول أن يوقع فى روعهم أن الثورة غير مجدية ، فأعاد تحصين المدينة وزاد فى عدد حرسه ، وجمع الأسلحة والعدد ، فلم يكفكف ذلك من نزواتهم ولم يردهم إلى التبصر والنظر فى العواقب ، وقد كان ابن عذارى صريحاً فى لومهم على سلوكهم هذا المسلك الوعر إذ أيد بقوة رأى القائلين بأن أصل هذا الهيج كان الأشر والبطر ، إذ لم تكن ثمة ضرورة من إجحاف فى مال ولا انتهاك لحرمة ولا تعسف فى مملكة ، ولم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سخرة ولاشىء يكون سبباً لخروجهم على السلطان . وظل مثيرو الفتنة يعملون ويحرضون ، وفضلا عن ذلك فقد عاد يحيي بن يحيي الفقيه المعروف إلى المدينة ، وتولى قيادة الجماهير وإثارتهم بخطبه الحماسية ، وتفاقمت الحالة ، واستوفت الثورة عناصرها ، وحدثت مسألة فردية كما يحدث عادة

فى بدء الكثير من الثورات أشعلت نيران الثورة وأطلقتها من عقالها ، وذلك أن أحد جنود الحكم اعتدى على أحد الصياقلة بالقتل عقب مشادة قامت بينهما ، وأثار ذلك ثائرة القوم ، فانتشرت الثورة انتشار النار فى الحطب الجزل ، وسرعان ماتسايلت على القصر جموع الثائرين الزاخرة ، وقد تسلحوا بكل ما وقع فى أيديهم ، ولما شاهد الحكم هذه الجموع الغفيرة المتدفقة كثوائر الأمواج ، ظن أنه قد يستطيع صد هجومهم وتمزيق شملهم بهجمة قوية من فرسانه ، ولكنه لم يلبث أن خاب ظنه وأخطأ تقديره . فقد استطاعت هذه الجموع التى استطارتها الحماسة واستفزها التعصب والغضب أن تصمد لهجوم الفرسان وترغمهم على الارتداد والتقهقر .

وتحرج الموقف ، وكان القصر محصناً ، ولكن لم يكن من المنتظر أن يثبت أمام هجمات هذه الجموع المتزاخرة ، وأخذ اليأس يستولى على نفوس المدافعين عن القصر مع علمهم أن الثائرين لا يرحمونهم ولا يبقون عليهم ، وبدأ اليأس يدب إلى نفس الحكم ، ولكنه ظل مع ذلك محتفظاً برزانته ورباطة جأشه ، ودعا غلامه « بزنت » وقال له : « إذهب إلى فلانة — إحدى كرائمه — وقل لها تعطيك قارورة الغالية » ، فظن الخادم أنه أساء الفهم وتلكأ وجمد مكانه ، فأعاد ذلك عليه ، فتعجب الغلام واجترأ على أن يقول : « أهذا يوم طيب ياسيدى ؟ » فانتهره

وقال : «هذا يوم وطنت نفسى فيه على الموت أو الظفر بعدوى، فأردت أن يعرف رأس الحكم من بين رءوس من يقتل معه » . ولما أتم التعطر

بالغالية أمره باستدعاء جدير ، وكان حارس السجن الذى سجن فيه الحكم بعض الفقهاء ، وكان قد تركهم فى السجن وعف عن قتلهم ، ولكن الآن وقد ثاروا به وعملوا على قتله فقد صمم على قتلهم ، فلما دخل عليه جدير قال له الحكم : « إذا أظلم الليل فأخرج هؤلاء المشايخ واضرب رقابهم » وقدر جدير أن القصر قد يقع فى يد الثائرين وأنه فى هذه الحالة سيحاسب حسابا عسيراً على توليه قتل هؤلاء الفقهاء فقال للحكم : « والله يامولاى إنى لأكره لك ولنفسى أن أكون غداً أنا وأنت فى زاوية من زوايا جهنم تهر إلى وأهر إليك ، ولا تنفعنى ولا أنفعك » فانتهره الحكم ، وعزم عليه فى إنفاذ ذلك فلم يجبه ، فأمر بإخراجه وإدخال ابن نادر بواب السجن فصدع بأمر الحكم .

ثم نزل الحكم من شرفة القصر شاكى السلاح ، وعرض جنده وشجعهم بكلمات قوية مناسبة ، ثم استدعى ابن عمه عبيد الله وكان شجاعاً نجدا ، وأمره أن يقود جماعة منتخبة من الجند ، وأن يشق طريقه بين الجموع ويشعل النار فى حى الربض الذى كان يقيم فيه أكثر الثائرين ، ورجح الحكم أن سكان ذلك الحى عندما يرون النيران تشتعل فى حيهم يسرعون إلى إطفائها واستنقاذ أولادهم وأزواجهم ، فيهاجمهم عبيد الله من الأمام وينقض عليهم الحكم ورجاله من الخلف ، ونجحت هذه الخطة ، وتفرق القوم كما قدر الحكم لما رأوا النيران المشتعلة وأسرعوا لإنقاذ أولادهم ، واستولى عليهم بعد ذلك الفزع ، ووقع فى صفوفهم الاضطراب لما رأوا

الهجوم من الأمام ومن الخلف ، وتناولتهم سيوف رجال الحكم بالتقتيل ، وعبثاً ألقوا أسلحتهم والتمسوا الصفح والغفران من رجال الحكم ، فقد كان الكثيرون من جنده لايعرفون العربية ، ولم ينج من سيوفهم سوى ثلاثمائة من ذوى المكانة .

وأشار بعض الوزراء على الحكم بألا يقبل الطاعة من الذين نجوا ، وأشار فريق آخر من الوزراء بقبول ذلك ، وقال إن منهم المسيء والمحسن ، فأخذ الحكم برأى من أشار بالصفح وأذن لهم فى الخروج من قرطبة ، وأمر الحكم باخلاء حى الربض الذى كان يقيم فيه الثائرون ، وهدم ديارهم ومساجدهم وحرقها ، ونفى الباقين من سكانه عن الأندلس ليأمن شرهم وعودتهم إلى العصيان .

وكان فى جملة من أجلب عليه فى الربض رجل من الفقهاء اسمه طالوت ابن عبد الغفار المعافرى ، وهو أحد من روى عن مالك وتفقه على أصحابه ، وكان جليل القدر فى الفقهاء ، ومن أشد الناس تحريضاً على الحكم ، فلما وقعت الواقعة وظهر الحكم على أهل الربض وأمر بتغريب من بقى منهم كان ممن أمر الحكم بتغريبهم طالوت الفقيه ، فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ، فاستخفى فى دار رجل يهودى سنة كاملة ، حتى سكنت الأحوال وذهبت الثائرة وكان اليهودى فى كل ذلك يكرمه أبلغ الكرامة ويعظمه أشد التعظيم ، فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاء ، فاستدعى اليهودى وشكره على إحسانه إليه وقال له : « قد عزمت غداً على الخروج وقصد دار أبى البسام الوزير — وكان بينه و بين أبى البسام وصلة — لأنه قرأ



obeikandi.com

على ولى عليه حق التعليم ، وقد بلغنى أن له جاهاً عند هذا الرجل ، فعسى أن يشفع لى عنده فيؤمننى و يدعنى فى بلدى » فقال له اليهودى : « يامولاى لا تفعل فما آمنهم عليك » . وجعل يحلف له بكل يمين يعتقدها أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أمله ذلك ولا ثقل عليه ، فأبى طالوت إلا الخروج ، فخلى اليهود بينه و بين ذلك ، فخرج حتى أتى دار أبى البسام بغلس ، فاستأذن عليه فأذن له ، فلما دخل عليه رحب به وأدنى مجلسه وسأله أين كان فى هذه المدة ، فقص عليه قصته مع اليهودى ، ثم قال له : « أشفع لى عند هذا الرجل حتى يؤمننى فى نفسى و يمن على بتركى فى بلدى »

فأمنه أبو البسام وسكنه وقال له : « الأمير أبقاه الله نادم على ما كان منه »

و بات عنده ، فلما أصبح قصد أبوالبسام القصر بعد أن وكل على طالوت من يحرسه ، فلما وصل إلى الحكم ابتسم ابتسامة ماكرة وقال : « كيف رأيك أيها الأمير فى كبش سمين على مزوده منذ سنة ؟

فقال له الحكم : « اللحم المشبع ثقيل ، واللحم الصحراوى أخف وأعذب »

فقال له أبو البسام : « غير هذا أريد ، طالوت عندى »

فقال له الحكم : « وأين ظفرت به ؟ »

فقال أبو البسام : « أتى لطفى عليه »

فأمر الحكم باحضاره ، ووضع له كرسى ، وجىء بطالوت يزعج إزعاجا شديداً وقد ذهب به الفزع كل مذهب . فلما وقعت عليه عين الحكم لم يبد عليه الغضب ، وقال له فى لهجة العتاب الرفيق :

ياطالوت . أخبرنى لو أن أباك أو ابنك مالك هذا القصر أكان يزيدك فى البر والإكرام على ما كنت أفعله بك ؟ هل أوردت قط علىّ حاجة لنفسك أو لغيرك إلا سارعت إلى إسعافك ؟ ألم أعدك فى علتك مرات ؟ ألم تتوف زوجتك فقصدتك إلى بابك ومشيت فى جنازتها راجلا من الربض ، ثم انصرفت معك راجلا حتى أدخلتك منزلك ؟ فماذا بلغ بك وهذا لى عندك أن لم ترض إلا بسفك دمى ، وهتك سترى ، وإباحة حرمتى ؟ »

أعادت كلمات الحكم الثقة إلى نفس طالوت، وجعلته يطمئن على حياته ، فعاودته صرامته واغتراره بوجهة نظره ، وأبت له كبرياؤه أن يعترف بأنه أخطأ فى حق الأمير، فأجاب : « ما أجد لنفسى فى هذا الوقت مقالا خيراً لى من الصدق ، أبغضك الله فلم ينفعك عندى كل ما صنعته . »

أدرك الحكم ما تضمنه كلام طالوت من التحدى الخفى ، فبدأ يغتلى غضبه، ولكن سرعان ما غالب نفسه ، واستعاد هدوءه ، فقال لطالوت فى رفق: « والله لقد بعثت فيك وما فى الأرض عقاب إلا وقد مثلت بين يدى لأوقعه بك ، فأنا أعلمك أن الذى أبغضتنى له قد صرفنى عنك ، فانصرف

فى حفظ الله آمناً ، والله لا تركت برك وما كنت عليه فى جانبك طول حياتى إن شاء الله ، فليت الذى كان لم يكن . »

لم يحرك هذا الكلام أريحية طالوت ، ولم يلن من صلابة نفسه ، وكان رده عليه الموجز المتجهم قوله : « لو لم يكن كان خيراً لك »

لم يزايل الحكم حلمه ورفقه ، وتظاهر بأنه لم يسمع هذا الكلام ، وقال لطالوت : « أين ظفر بك أبو البسام ؟ »

فأجاب طالوت : « والله ما ظفر بى ، أنا أظفرته بنفسى وقصدته لوصلة كانت بينى و بينه . »

فقال له الحكم : « فأين كنت فى عامك هذا ؟ »

فقال طالوت : « كنت عند رجل من اليهود . »

فالتفت الحكم إلى أبى البسام ، وقد بان فى وجهه الغضب وقال له : « يا أبا البسام ، رجل من اليهود حفظ فيه محله من الدين والعلم ، وخاطر بنفسه وأهله وماله وولده معى ، وأردت أن تنشبنى فيما أنا نادم عليه ؟ أخرج عنى ، والله لا رأيت لك وجها أبداً »

وأمر برفع فراشه وعزله ، و بقى طالوت مبر وراً محفوظاً على ما شرط له إلى أن توفى فحضر جنازته .

كان كل من الحكم وطالوت يعتقد أنه على الحق ، وقد أظهر لنا الحديث الذى دار بينهما الفرق بين تعصب الفقيه المتشدد الذى ينظر إلى الحق من ناحية واحدة ، و بين سجاحة الأمير السمح الرحب الفكر الذى ينظر إلى

الحق من زوايا مختلفة ، وقد عبر الأمير الحكم عن اعتقاده بأنه كان محقاً في قتال أهل الربض تعبيراً شعرياً في هذه الأبيات البليغة .

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعاً
وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة
أبادرها مستنضى السيف دارعا
تنبيك أني لم أكن في قتالهم
بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا
حميت ذماري وانتهكت ذمارهم
ومن لا يحامي ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبنا
سقيتهمو سما من الموت ناقعا
وهل زدت إذ وفيتهم صاع قرضهم
فذاقوا منايا قدرت ومصارعا
فهذي بلادي إنني قد تركتها
مهاداً ولم أترك عليها منازعا



obeikandi.com